في الخامسة تماماً

كنا نجلس معاً في مكاننا المعتاد، نراقب الوجوه المتغيرة من حولنا، نسترجع الذكريات؛ الدراسة، صداقة الجامعة، الزواج، الأمومة، وأخيراً الطلاق، أنا ما زلت زوجة، أما هي فلا، حصلت على الطلاق حديثاً، ما زالت في العدة.

انقطعت ابتسامتها فجأة، شاهدت بصرها يتجه نحو شيء ما ويتوقف، بدأت أشعر بها ترتبك، تتحرك بعصبية ملحوظة، ترتجف بخفة شديدة، نظرت اتجاه عينيها، كان هو، زوجها السابق بصحبة امرأة أخرى، عندما رآها غادر المكان، رفض البقاء.

حاولت أن أتجاهل الموقف، ولكن من الصعب تجاهل ارتباكها وعينها التي تبدل الضحك فيها إلى غيوم توشك أن تمطر، تعرف جيداً أنني رأيته، وتدرك محاولاتي الفاشلة في تجاهل الموقف، خرجت كلماتها حزينة سوداء، أخبرتني عن قسوة الإحساس الذي يسكنها، إحساس رهيب بالفشل، بأنه رفضها، رفض وجودها في حياته، وما زال يرفض، عندما رآها غادر مسرعاً، رفض أن يبقى معها في المكان

نفسه، حتى ولو عن بعد، حاولت أن أهون الأمور، أخبرتها أن الطلاق كان قراراً مشتركاً، كلاهما سعى له، كلاهما كان يريده، قاطعتني، قالت سريعاً وبلا تفكير:

ـ لم يكن قراراً مشتركاً.. كان قراره هو.. أنا لم أتعلم أن أصنع قراراتي أبداً.. لم أتعلم أن أرهق عقلي بالتفكير.. تعودت منذ الصغر أن تكون طلباتي مُجابة.. لم تكن في حياتي أي معاناة.. معاناتي أن يقول لي أحدهم: لا.. لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة.. لم يلعب الرفض أي دور في حياتي.. كل شيء كان سهلاً.. لم أدرك أن هذه السهولة ستقضي على حياتي يوماً ما.. المعاناة لم تعرف الطريق لي إطلاقاً.. دراسة موفقة.. جامعة كنت أرغب في دخولها.. زواج مرموق.. ولد وبنت.. لم تترك لي الدنيا شيئاً أتمناه أو شيئاً أسعى إليه..

حياة بلا معاناة لا تصنع بشراً.. أنا لا أتحدث عن المعاناة الشديدة التي تقهر النفس، ولكنني أتحدث عن المعاناة التي تخلقنا.. المعاناة التي تجعلنا نتمنى ونتعلم قيمة الأحلام، وكيف ننالها.. لم أشعر يوماً أن زوجي يعاني في حياته معي.. لم أشعر أن هناك خطأ ما يجب إصلاحه.. لم ألمس أنني مملة.. وأن مللي يجعلني أفقد من حولي..

لم ألاحظ اختفاء الأصدقاء . . لم أشعر بهم . . اعتقدت أن ظهورهم واختفاءهم مجرد صدفة . . حتى أولادي كانوا يشعرون أنني لا أمنحهم ما يبحثون عنه . . كنت زوجة عادية للغاية . . وأماً تقليدية جداً في زمن غير تقليدي . . بمرور الوقت تصيبنا الأشياء الثابتة بالملل . . وأنا أرفض التغيير . .

أماكن الأشياء في بيتي وفي حياتي لا تتغير أبداً . . أنا غير مؤثرة في حياة من حولي . . أمر دون أن يشعر بي أحد . . أفعل نفس الأشياء . . أقول كلاماً واحداً في المواقف المتشابهة . .

كلماتي مكررة . . رحل زوجي بلا ندم . . ملّ حياتي . . هل رأيت المرأة التي معه ؟ جديدة . .

جديدة في كل شيء . . ملابسها . . شعرها . . كل شيء مختلف عني . . لقد جدد حياته . . وأنا ما زلت كما أنا . . الصورة القديمة نفسها . . أبيض وأسود .

حاولت أن أتغير ، ولكن للأسف بدأت متأخرة . . محاولة التغيير جعلتني أكتشف من حولي . . أعرف أنهم لا يريدون حياتي . . كنت قد بدأت ، ولكنهم رفضوا رؤيتي . . أغمضوا عيونهم . .

أعرف أن التجديد يمنحنا طاقة لا حدود لها . . يعود بأعمارنا إلى

الـوراء، وهـذا مـا نشتاق إليه عندما يمضي بنا الزمن. . قبلت الطلاق رغـم الألم. . رغـم أنـني كـنت رافضـة لـه. . قبولـي كان نوعاً من التجديد.

أقبل الجرسون ووضع أمامها كوباً من الشاي: إنها الخامسة تماماً.

توقفتْ عن الكلام، نظرتْ في ساعتها، إنها الخامسة تماماً، شاي الخامسـة من بقايا عهدها القديم، موعد ثابت لا يقبل التغيير، نظرت نحو الجرسون، رددت بثقة:

ـ لا أريده.